

سُورَةُ الْمَرْزُوقِ

قَالَ النَّجَّارِيُّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [الْمَرْزُوقِ: ٦]

القراءات: «وطئاً»: قرأ أبو عمرو وابن عامر بكسر الواو وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها همزة وقرأ الباكون بفتح الواو وسكون الطاء بلا مد ولا همز.

المعنى: قال الرازي: «وطئاً» أي مواطأة وملاءمة وموافقة وهو مصدر؛ يقال واطأت فلاناً على كذا مواطأة ووطأة ومنه ﴿لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التَّوْبَةِ: ٣٧] أي ليوافقوا فإن فسرنا الناشئة بالساعات كان المعنى أنها أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص وإن فسرناها بالنفس الناشئة كان المعنى شدة المواطأة بين القلب واللسان وإن فسرناها بقيام الليل كان المعنى ما يراد من الخشوع والإخلاص وإن فسرناها بما ذكرت كان المعنى: إن إفشاء تلك المجاهدات إلى حصول المكاشفات في الليل أشد منه في النهار. وعن الحسن أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق.

التوجيه: قال ابن عاشور: وقرأ جمهور العشرة «وطئاً» بفتح الواو وسكون الطاء بعدها همزة والوطء: أصله وضع الرجل على الأرض وهو هنا مستعار لمعنى يناسب أن يكون شأنًا للظلام بالليل فيجوز أن يكون الوطاء استعير لفعل من أفعال المصلي على نحو إسناد المصدر إلى فاعله أي واطئاً أنت فهو مستعار لتمكن المصلي من الصلاة في الليل بتفرغه لها وهدوءه به من الأشغال النهارية كتمكن الواطئ على الأرض فهو أمكن للفعل والمعنى: أشد وقعاً وبهذا فسر جابر بن زيد والضحاك وقاله الفراء. ويجوز أن يكون الوطاء مستعاراً لحالة صلاة الليل وأثرها في المصلي أي أشد أثر خير في نفسه وأرسخ خيراً وثواباً وبهذا فسر قتادة وقرأه ابن عامر وأبو عمرو وحده «وطاء» بكسر الواو وفتح الطاء ومدها مصدر واطأ من مادة الفعال. والوطاء: الوفاق والملائمة قال تعالى ﴿لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ والمعنى أن صلاة الليل أوفق بين اللسان والقلب

أي بين النطق بالألفاظ وتفهم معانيها للهدوء الذي يحصل في الليل وانقطاع الشواغل ويحصل هذا فسر مجاهد.

وقال د/ محمد محيسن: قرئ «وطاء» على وزن «فِعال» مصدر «واطأ»، وقرئ «وطئاً» مصدر «وطى».

وقال الرازي: قرئ «أشد وطئاً» بالفتح والكسر وفيه وجهان:

الأول- قال الفراء أشد ثبات قدم لأن النهار يضطرب فيه الناس ويتقلبون فيه للمعاش. الثاني- أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار. وهو من قولك اشتدت على القوم وطأة سلطانهم إذا ثقل عليهم معاملتهم معه. وفي الحديث «اللهم اشد وطأتك على مُضَر» فأعلم الله نبيه أن الثواب في قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها. ونظير قوله عليه الصلاة والسلام «أفضل العبادات أحمرها» أي أشقها واختار أبو عبيدة القراءة الأولى قال لأنه تعالى لما أمره بقيام الليل ذكر هذه الآية فكأنه قال إنما أمرتك بصلاة الليل لأن موافقة القلب واللسان فيه أكمل وأيضاً الخواطر الليلية إلى المكاشفات الروحانية أتم. قلت: الحديث الذي ذكره لا يصح.

وقال أبو حيان: وقرأ الجمهور: وطاء بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً وقرأ قتادة وشبل عن أهل مكة: بكسر الواو وسكون الطاء والهمزة مقصورة، والمعنى أنها أشد مواطأة أي يواطئ القلب فيها اللسان أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص ومن قرأ «وطأ» أي أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل وأثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار كما جاء: «اللهم اشد وطأتك على مضر». وقال الأخفش: أشد قياماً وقال الفراء: أثبت قراءة وقياماً وقال الكلبى: أشد نشاطاً للمصلي لأنه في زمان راحته وقيل أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة، والليل وقت فراغ فالعبادة تدوم.

قلت: قراءة «وطئاً» بكسر الواو شاذة، والجمهور لم يقرأوا «وطاءً» كما قال أبو حيان، وإنما قرأها كذلك أبو عمرو وابن عامر فقط.

قال الجاني: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزمر: ٩]

القراءات: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر «ربُّ المشرق» وقرأ الباقر «ربُّ المشرق».

التوجيه: قال الرازي: قرئ بالرفع «رب» وفيه وجهان:

أحدهما- على المدح، والتقدير وهو رب المشرق فيكون خبر مبتدأ محذوف كقوله تعالى ﴿يَشْرِقُ مِنْ ذَلِكَ النُّارُ﴾ [الحج: ٧٢] وقوله تعالى ﴿مَتَّعُ قَلِيلٌ﴾ [العنكبوت: ١٩٧] أي تقلبهم متاع قليل. والثاني- أن ترفعه بالابتداء وخبره الجملة التي هي «لا إله إلا هو» والعائد إليه الضمير المنفصل. والقراءة الثانية: الخفض وفيها وجهان:

الأول- على البذل من ربك- الثاني- قال ابن عباس: على القسم بإضمار حرف القسم كقولك: الله لأفعلن وجوابه: لا إله إلا هو كما تقول والله لا أحد في الدار إلا زيد.

قال الجاني: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الزمر: ٢٠]

القراءات: «ثلثي الليل» قرأ هشام بسكون اللام والباقر بضمها، «ونصفه وثلثه»: قرأ ابن كثير وعاصم وحمة والكسائي وخلف العاشر بنصب الفاء والشاء وضم الهاء فيها وقرأ الباقر بخفض الشاء والفاء وكسر الهاء فيها.

التوجيه: قال القرطبي: «وَنِصْفُهُ وَثُلُثُهُ» بالخفض قراءة العامة عطفاً على «ثُلُثِي» والمعنى تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه، وقرأ ابن كثير

والكوفيون «وَنُصْفُهُ وَثُلْثُهُ» بالنصب عطفًا على «أَدْنَى» والتقدير: تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه. قال الفراء: وهو أشبه بالصواب لأنه قال أقل من الثلثين ثم ذكر نفس القلة لا أقل من القلة وقال القشيري: وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف لخفة القيام عليهم بذلك القدر وكانوا يزيدون وفي الزيادة إصابة المقصود فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه وينقصون منه ويحتمل أنهم أمروا بقيام نصف الليل ورخص لهم في الزيادة والنقصان فكانوا ينتهون في الزيادة إلى قريب من الثلثين وفي النصف إلى الثلث ويحتمل أنهم قدر لهم النصف وأنقص إلى الثلث والزيادة إلى الثلثين وكان فيهم من يفي بذلك وفيهم من يترك ذلك إلى أن تُسَخَّ عنهم.

فائدة: قال الألويسي: واستشكل أيضاً هذا المقام على تقدير كون الأمر وارداً بالأكثر- أي في قوله تعالى قم الليل إلا قليلاً - بأنه يلزم إما مخالفة النبي ﷺ لما أمر به أو اجتهاده والخطأ في موافقة الأمر وكلاهما غير صحيح أما الأول فظاهر لا سيما على كون الأمر للوجوب وأما الثاني فلأن من جوز اجتهاده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والخطأ فيه يقول إنه لا يقرّر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الخطأ وأجيب بالتزام أن الأمر وارد بالأقل لكنهم زادوا حذرًا من الوقوع في المخالفة وكان يشق عليهم وعلم الله سبحانه أنهم لو لم يأخذوا بالأشق وقعوا في المخالفة فنسخ سبحانه الأمر كذا قيل فتأمل.

قلت: قد أحسن أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ في توجيه القراءتين، فقال: قراءة النصب مناسبة للتقسيم الذي في أول السورة لأنه إذا قام الليل إلا قليلاً صدق عليه «أدنى من ثلثي الليل» لأن الزمان الذي لم يقم فيه يكون الثلث وشيئًا من الثلثين فيصدق عليه قوله: «إلا قليلاً» وأما قوله: «ونصفه» فهو مطابق لقوله: أولاً «نصفه» وأما ثلثه فإن قوله: «أو انقص منه قليلاً» قد ينتهي النقص في القليل إلى أن يكون الوقت ثلث الليل وأما قوله: «أو زد عليه» فإنه إذا زاد على النصف قليلاً كان الوقت أقل من الثلثين فيكون قد طابق قوله: «أدنى من ثلثي الليل» ويكون قوله تعالى: «نصفه أو انقص منه قليلاً» شرحاً لمبهم

ما دل عليه قوله: «قم الليل إلا قليلاً» وعلى قراءة النصب قال الحسن وابن جبير: معنى تحصوه: تطبيقوه أي قدر تعالى أنهم يقدرون الزمان على ما مر في أول السورة فلم يطبقوا قيامه لكثرتة وشدته فخفف تعالى عنهم فضلاً منه لا لعله جهلهم بالتقدير وإحصاء الأوقات وأما قراءة الجر فالمعنى أنه قيام مختلف مرة أدنى من الثلاثين ومرة أدنى من النصف ومرة أدنى من الثلث وذلك لتعذر معرفة البشر مقادير الزمان مع عذر النوم وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى والبشر لا يحصون ذلك أي لا يطبقون مقادير ذلك فتأب عليهم أي رجع بهم من الثقل إلى الخفة وأمرهم بقيام ما تيسر وعلى القراءتين يكون علمه تعالى بذلك على حسب الوقوع منهم لأنهم قاموا تلك المقادير في أوقات مختلفة؛ قاموا أدنى من الثلاثين ونصفاً وثلاثاً وقاموا أدنى من النصف وأدنى من الثلث فلا تنافي بين القراءتين.

قلت: ولكن يبقى استشكال قراءة الجر، لأن قيامه أقل من النصف وأقل من الثلث قد يعارض أول السورة ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ ۚ ﴿١﴾ قُرْ الْبَلَّ إِلَّا قَلِيلًا ۚ ﴿٢﴾ نِصْفَهُ ۚ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [المرزوق: ١ - ٤]، والجواب أن قيامهم أدنى من ثلثي الليل لا يعارض قوله «نصفه»، وقيامهم أدنى من نصفه لا يعارض قوله: ﴿نِصْفَهُ ۚ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ﴾ أي انقص من النصف قليلاً، وقيامهم أدنى من ثلثه لا يعارض قوله: ﴿أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ﴾ أيضاً لأن الثلث كثير - كما في الحديث - فإذا انقصوا عنه شيئاً يسيراً لم يكونوا تاركين لقوله: ﴿أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۚ﴾ أو يقال: من أنقص عن الثلث ظنَّ أنه قد أنقص عن النصف قليلاً، ولكن قد أخطأ في اجتهاده، وغُذر لعدم قدرته على إحصاء ذلك، وأما قوله «نصفه» فلا يعارضه قيامهم أدنى من الثلثين، فإنه قد ينتهي إلى النصف، وأما قوله: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۚ﴾ فإن الزيادة على النصف قد تنتهي إلى أن تكون أقل من الثلثين أيضاً.

